﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين نماذج الهلاك للسّوابق، وبين مصير الكفرة اللّواحق

بعد أن أخبر بحال الكافرين، وعدم إغناء أموالهم وأولادهم عنهم من الله شيئًا، في الدُّنيا والآخرة، وأنَّهم حطب النَّار، وضرب لهم مثلًا يُشبههم، فحالهم كحال آل فرعون في التَّكذيب الصَّادر منهم والتَّعذيب الواقع عليهم، لمَّا ظهر ذلك جليًّا، وبان أنَّ هؤلاء الكافرين المكذِّبين مغلوبون صرَّح لنبيِّه ﷺ بذلك تشريفًا له وتكريمًا، ووعيدًا لهم وتهديدًا، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُل﴾: أمر من القول، وهو مِنَ النُّطْقِ، يُقَالُ: قَالَ يَقُولُ قَوْلًا، وَالْمَقُولُ: اللِّسَانُ، والقَوْلُ يستعمل على أوجه: أظهرها أن يكون للمركَّب من الحروف المبرز بالنُّطق، مفردًا كان أو جملة[1].

2) ﴿سَتُغۡلَبُونَ﴾: من الغلبة، يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ وَقَهْرٍ وَشِدَّةٍ، مِنْ ذَلِكَ: غَلَبَ الرَّجُلُ غَلْبًا وَغَلَبًا وَغَلَبَةً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣﴾ [الرُّوم: 3]، وأصل غَلَبَتْ: أن تناول وتصيب غَلَبَ رقبته، والْأَغْلَبُ: الغليظ الرَّقبة، يقال: رجل أَغْلَبُ، وامرأة غَلْبَاءُ، وهضبة غَلْبَاءُ، كقولك: هضبة عنقاء ورقباء، أي: عظيمة العنق والرَّقبة[2].

3) ﴿وَتُحۡشَرُونَ﴾: من الحشر، وهو الْجَمْعُ مَعَ سَوْقٍ، وَكُلُّ جَمْعٍ حَشْرٌ، إخراج الجماعة عن مقرِّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غلب).

ونحوها، وحَشر النَّاس يوم القيامة فيه أمور؛ لأنَّه يقع بَنشْرهم من قبورهم، وسَوْقهم إلى الموقف، وجمعهم فيه: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: 47][1].

4) ﴿جَهَنَّمَ﴾: اسم من أسماء نار الآخرة - والعياذ بالله - ويقال للبئر: جَهَنَّم (بفتحتين فشدٌّ)، وجَهَنَّام (بتثليث الجيم والنُّون مشدَّدة): بعيدة القعر.

والمعنى المحوريُّ: بُعْد قَعْر الشَّيء وعُمق تجوُّفه مع تضامٍّه على هذا التَّجوُّف، كالبئر الموصوفة، ومن هذا جَهَنَّم الَّتي يعذَّب فيها الكافرون - نعوذ بالله منها وممَّا يؤدِّي إليها - وقد سمَّاها الله - ﷻ - هاوية: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة: 9] "والهاوية: كُلُّ مَهْواةٍ لا يُدْرَك قعرُها"[2].

5) ﴿وَبِئْسَ﴾: كلمة تستعمل في جميع المذامِّ، من البؤس بالضَّمِّ: شدَّة الفقر، والبأساء: الجوع، والبائس: الرَّجل النَّازل به بليَّة أو عُدْم يُرْحَم لما به، وبَئِس كـ (تعب): اشتدَّت حاجته، والتَّباؤس: التفاقر، والمعنى المحوريُّ: هو: حِدَّةٌ أو جفافٌ يخالط الجوف أو الحوزة: كالفقر الشَّديد الَّذي عُبِّر عنه بالعُدْم، ومن هذا: بئِسَ، (ضِدُّ: نِعْمَ)، فهي تدلُّ على الشَّقاء والفراغ من الخير، كما أنَّ (نِعْمَ) ضِدُّ ذلك، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: 102][3].

6) ﴿ٱلْمِهَادُ﴾: الْمِيمُ وَالْهَاءُ وَالدَّالُ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَوْطِئَةٍ وَتَسْهِيلٍ لِلشَّيْءِ، وَمِنْهُ الْمَهْدُ، وَمَهَّدْتُ الْأَمْرَ: وَطَّأْتُهُ، وَتَمَهَّدَ: تَوَطَّأَ، وَالْمِهَادُ: الْوِطَاءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ومنه المهاد: الفراش، وقد مَهَدَ الفِراشَ: بسطه ووَطَّأه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم: 44]، أي: يُوَطِّئُون، ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: 206][4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنـــذار الـكـفّـار بالغلبة والمصير إلى النّار، وبئس القرار

قل - أيُّها الرَّسول - لمشركي مكَّة واليهود وغيرهم الَّذين استهانوا بنصرك في بدر: ستُهزمون في الدُّنيا، وتجمعون سَوقًا إلى قعر النَّار المسمَّاة جهنَّم، وسيكون لكم في قعرها فراش، وبئس الفراش!

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حشر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جهنم).
(3) الراغب الأصفهاني، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بأس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (مهد).

هذا، وقد استجاب النَّبيُّ ﷺ لأمر ربِّه، وجمع اليهود بعد بدر في سُوق بني قينقاع، فحذَّرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش، فقالوا: لا يغرنَّك أنَّك أصبتَ أغمارًا لا علم لهم بالحرب، لئن قاتلتنا؛ لعلمت أنَّا نحن النَّاس، فنزلت، وقد صدق الله وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النَّضير وفتح خيبر، وضرب الجِزية على مَن عداهم، وهو من دلائل النُّبوَّة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل لكمال الاتِّصال في السّياق:

تأكيد المضمون السّابق، تناسق وترابط بين الآيات

وهذا الكلام تأكيد لمضمون ما قبله، أي: قل - يا محمَّد ﷺ- لهؤلاء المغرورين بِحَوْلِهِمْ وقوَّتهم المعتزِّين بأموالهم وأولادهم: إنَّكم ستغلبون في الدُّنيا وتعذَّبون في الآخرة، وقد كان الكافرون يعتزُّون بأموالهم وأولادهم، فتوعَّدهم الله تعالى وبيَّن لهم أنَّ الأمر ليس بالكثرة والثَّروة، وإنَّما هو بيده سبحانه وتعالى.

وقد أنفذ الله وعيده الأوَّل في أولئك الكافرين، فغُلبوا في الدُّنيا، وقيل: إنَّ الخطاب لليهود، وقد غلبهم المسلمون، فقتلوا بني قريظة الخائنين، وأجلوا بني النَّضير المنافقين، وفتحوا خيبر، وقيل: هو للمشركين، وقد غلبهم المؤمنون يوم بدر، وأتمَّ الله نعمته بغَلَبِهم يوم الفتح، ولم تُغنِ عن الفريقين أموالهم ولا أولادهم، وسينفذ وعيده بهم في الآخرة، فيحشرون إلى جهنَّم، وبئس المهاد[2].

الاستئناف الابتدائيُّ ودلالته في الآية:

دلالة الانتقال من التَّخويف وضرب المثل، إلى التَّهديد والوعيد

استئناف ابتدائيٌّ؛ للانتقال من النِّذارة إلى التَّهديد، ومن ضرب المثل لهم بأحوال سلفهم في الكفر، إلى ضرب المثل لهم بسابق

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/7، نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسَّر: 51.
(2) رضا، تفسير المنار: 391، 392.

أحوالهم المُؤْذِنة بأنَّ أمرهم صائر إلى زوال، وأنَّ أمر الإسلام ستندكُّ له صمُّ الجبال[1].

نكتة مخاطبة النَّبيِّ بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

السّياق تشريف للنَّبيِّ بالخطاب، وتهديد للكافرين بالهون والعذاب

لقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يتولَّى الرَّدَّ عليهم، وأن يواجههم بهذا الخطاب المشتمل على التَّهديد والوعيد؛ لأنَّهم كانوا يتفاخرون عليه بأموالهم وبقوَّتهم، فكان من المناسب أن يتولَّى ﷺ الرَّدَّ عليهم، وأن يخبرهم بأنَّ النَّصر سيكون له ولأصحابه، وأنَّ الدَّائرة ستدور عليهم[2].

سرُّ العدول عن ضمير (هم) إلى الاسم الظّاهر:

الاسم الظاهر تخصيص للكافرين بالنِّذارة، مع زيادة تبكيتهم

يحتمل أنَّ المراد بالَّذين كفروا المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، فيجيء فيه ما تقدَّم، والعدول عن ضمير (هم) إلى الاسم الظَّاهر لاستقلال هذه النِّذارة، ولا يخلو من تبكيت لهم وتقريع.

والظَّاهر أنَّ المراد بهم المشركون خاصَّة، ولذلك أعيد الاسم الظَّاهر، ولم يُؤتَ بالضَّمير بقرينة قوله بعده: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ﴾، وذلك ممَّا شاهده المشركون يوم بدر[3].

دلالة حرف السِّين في قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾:

إبراز الإعجاز الغيبيِّ، بدلالة الحرف الدّالّ على المستقبل

يدلُّ حرف السِّين على المستقبل القريب، ويشير هنا إلى إعجاز غيبيٍّ يُنَبَّأ به الرَّسول ﷺ ويؤمر من قِبَل ربِّه بتبليغه لهؤلاء الكافرين، وقد فعل النَّبيُّ ﷺ ذلك، كما جاء في سبب النُّزول، وهذه آية من الآيات الدَّالَّات على صدق النَّبيِّ ﷺ وعظيم إيمانه وثقته بربِّه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.

سرُّ التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾:

ما سيلاقاه الكافرون، ممّا سوف يكون

يشير الفعل المضارع إلى استمرار الغلب، واستحضار الصُّورة المُهينة للكافرين حين يُحشرون إلى جهنَّم.

القراءات ودلالاتها:

قرأ حمزة والكسائيُّ وخلف ﴿سَيُغْلَبُونَ وَيُحْشَرُونَ﴾ بالياء فيهما، والباقون بالتَّاء المنقَّطة من فوق فيهما ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾[1]، فمن قرأ بالياء المنقَّطة من تحت، فالمعنى: بلِّغْهم أنَّهم سيغلبون، ويدلُّ على صحَّة الياء قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ﴾ [النور: 30]، ولم يقل: غضُّوا، ومن قرأ بالتَّاء؛ فللمخاطبة، ويدلُّ على حسن التَّاء قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ﴾ [آل عمران: 81] والفرق بين القراءتين من حيث المعنى أنَّ القراءة بالتَّاء: أمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنَّم، والقراءة بالياء: أمر بأن يحكي لهم[2].

بلاغة الإطناب في الآية:

قوَّة لفظ (جهنم) يدلُّ على شدَّة عذابها، وبُعد قعرها

وجيء في هذا التَّهديد بأطنب عبارة وأبلغها؛ لأنَّ المقام مقام إطناب لمزيد الموعظة، والتَّذكير بوصف يوم كان عليهم أن يعلموه[3].

إمساس الألفاظ أشباهَ المعاني[4]:

اصطفى القرآن من أسماء النَّار ما يُعبِّر عن المعنى المناسب للسِّياق، فآثر لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾ للوعيد في المواقف الَّتي يستعلي فيها

(1) ابن الجزري، النشر: 2/238.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/153.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.

(4) هذا باب من الخصائص لابن جني، قال فيه: "اعلم أنَّ هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحَّته، ومن ذلك أنَّهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلًا على تكرير الفعل، فقالوا: كسَّر وقطَّع وفتَّح وغلَّق، وذلك أنَّهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني، فأقوى اللَّفظ ينبغي أن يقابل به قوَّة الفعل". ابن جني، الخصائص: 2/154 - 157.

الكافرون، ويطغى فيها الظَّالمون، ونحو ذلك، وقد ورد في القرآن الكريم سبعًا وسبعين مرَّةً، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: 206]، فانظر كيف توعَّد هذا الَّذي أخذته العِزَّة بالإثم بهذا الاسم المخيف ﴿جَهَنَّمُ﴾، وهكذا في سائر المواضع، ولن تعدم فيها هذا المعنى أو ما يحوم حوله.

وكانت ﴿جَهَنَّمُ﴾ بالذَّات لهؤلاء الكافرين؛ لأنَّهم زعموا أنَّهم أكثر أموالًا وأولادًا، وأنَّهم لن يُعَذَّبوا، فطغَوا، وبغَوا، وتكبَّروا على الله تعالى، فكان جزاؤهم في جهنَّم، والعياذ بالله.

ومن النَّاحية الصَّوتيَّة: فإنَّ الجيم تعبِّر عن هيكل غير مُصمت، والهاء عن فراغ جوفه، والنُّون عن امتداد ذلك الفراغ في الباطن، والميم عن تضامِّها واستوائها على ذلك بقيام هيكلها هكذا، أو بأن عمقها الشَّديد جدًّا يُبْرِز تضامَّ ظاهرها على جوفها أو على ما يُلقى فيها، ولا أظنُّنا - بعد استعمال اللَّفظ وصفًا للبِئْر وعَلَمًا ولقبًا، وبعد انطباق المقاييس الصَّوتيَّة العربيَّة على اللَّفظ - بحاجة إلى الإطالة في تزييف ادِّعاء تعريب اللَّفظ عن الفارسيَّة أو العبريَّة (كهنام)، بل نضيف تأكيدًا لأصالة عروبته أنَّ من الاستعمالات العربيَّة "كلَّ نار عظيمة في مهواة؛ فهي جَحيم، "والصِّلة الصوتيَّة بين الجحيم وجهنَّم واضحة، فالحاء والهاء أختان[1].

عطف الإنشاء على الخبر في عطف: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ على ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾:

مجاورة الذَّمِّ الشَّديد، للخبر الأكيد، إيقان بتحقُّق وقوعه

عطف ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ على ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ عطف الإنشاء على الخبر[2]، فعطْف جملة الذَّمِّ على الخبر - بأنَّهم سيغلبون في الدُّنيا، ويحشرون في الآخرة سوقًا إلى النَّار - دليل على أنَّ ما بعد الخبر مثله، وإن كان في الظاهر إنشاءً، إشارة إلى تحقُّقه.

دلالة رأس الآية ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ على المراد:

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، إمَّا من تمام ما يقال لهم، أو استئناف لتهويل شأن جهنَّم، وتفظيع حال أهلها[3]، وعلى كلٍّ ففيه مزيد تهكُّمٍ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جهنم).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.

تـهـويـل شـأن جهنَّم، وتفظيع حـال أهـلـهـا، بتبشيع وصفها

بهؤلاء الكافرين؛ إذْ إنَّ (المهاد) في الأصل: فراش ليِّن، وهو المكان المهيَّأ للنَّوم، والتَّعبير عن جهنَّم بأنَّها: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ لَا يخلو من تهكُّم بأولئك الكافرين، كما يقال: (تحيَّة بينهم ضربٌ وجيع)، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»